

## غَزْوَةُ تَبُوكَ

## تَارِيخُهَا وَأَسْمَاؤُهَا وَأَسْبَابُهَا :

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري ، وقد سميت هذه الغزوة بغزوة تبوك نسبة إلى المكان الذي انتهى إليه الجيش الإسلامي ، وهو عين تبوك كما سميت بغزوة العسرة ، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم عندما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ [التوبة: ١١٧] .

وقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك ، فقد كان الجو شديد الحرارة ، والمسافة بعيدة ، والسفر شاقاً لقلة المؤن ، وقلّة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة وقلّة الماء ؛ حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء ، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش ، كما سميت بالفاضحة ؛ لأنها كشفت عن حقيقة المنافقين ، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة .

وقد ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة ، أن الروم جمعت جموعاً وأجلبت معهم لحم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب وجاءت في مقدّمهم إلى البلقاء ، فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه .

ويرى ابن كثير: أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد ؛ ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم ، لأنهم أقرب الناس إليه ، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣] .

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب ؛ إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة ، بما فيهم أهل الكتاب الذي وقفوا في طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير .

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين في

عقر دارهم ، أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم ؛ لأن أصل الخروج كان وارداً<sup>(١)</sup> .  
الْأَخْبَارُ الْعَامَّةُ عَنِ اسْتِعْدَادِ الرُّومَانِ :

وكانت الأنبياء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان ، والقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنون زحف الرومان ، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً في هذه السنة (٩ هـ) ، وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له ، ولم يفظن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته ، فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب وهو يروي القصة: وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِذَا غَبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيَهُ بِالْخَبَرِ وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانٍ ذِكْرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا فَقَدْ امْتَلَأْتُ صُدُورَنَا مِنْهُ فَإِذَا صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ فَقَالَ افْتَحْ فَفُتِحَ فَقُلْتُ جَاءَ الْغَسَّانِيُّ فَقَالَ بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْوَاجَهُ . . . الحديث<sup>(٢)</sup> .

وفي لفظ آخر أنه قال: وَكُنَّا تَحَدَّثُنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ الثُّعَالَ لِغَزْوِنَا فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوَيْتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً فَضْرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَنَائِمٌ هُوَ فَفَزَعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَقَالَ حَدَّثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَتْ غَسَّانُ قَالَ لَا بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ . . . الحديث<sup>(٣)</sup> .

وهذا يدل على خطورة الموقف ، الذي يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان ، ويزيد ذلك تأكيداً ما فعله المنافقون عندما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ في كل الميادين ، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق - برغم هذا كله - طفق هؤلاء المنافقون يعملون في تحقق ما كان يخفونه في صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله ، ونظراً إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للددس والتأمر في صورة مسجد ، وهو مسجد الضُّرَّار ، أسسوه كفرةً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٢٥٢ - ٥٢٧) .

(٢) صحيح البخاري ٢ / ٧٣٠ .

(٣) رواه البخاري ١ / ٣٣٤ .

ورسوله ، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخضعوا المؤمنين ؛ فلا يفتنوا ما يؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم ، ولا يلتفتوا إلى من يردده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ورفقائهم فى الخارج ، ولكن رسول الله ﷺ أخطر الصلاة فيه - إلى قفولة من الغزوة - لشغله بالجهاز ، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله ؛ حتى قام رسول الله ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو ، بدلاً أن يصلى فيه <sup>(١)</sup> .

**النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالْتَّهْيُؤِ لَغَزْوِ الرُّومِ :**

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمان من عسرة الناس ، وشدة من الحرّ ، وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ؛ فإنه بينها للناس لبعض الشقة <sup>(٢)</sup> وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبتة ، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم <sup>(٣)</sup> .

**تَجْهِيْزُ جَيْشِ الْعُسْرَةِ :**

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجيئ أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم : ﴿ لَا أَحْجِدُمَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَفِيْضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوْا مَا يَنْفِقُوْنَ ﴾ [التوبة: ٩٢] .

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات ، كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام ، مائتا بعير بأقنابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ، ثم تصدق

(١) الرحيق المختوم ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) الشقة: السفر البعيد .

(٣) ابن هشام ( ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣ ) .

بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فشرها في حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقبلها ويقول: ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ثم تصدق وتصدق؛ حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله، ولم يترك لأهله إلا الله رسوله - وكانت أربعة آلاف درهم - وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثرها، حتى كان منهم من أنفق مُدًّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها.

وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَكٍ <sup>(١)</sup> ومعاضد وخلخل وقرط وخواتم.

ولم يمك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جَهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩] <sup>(٢)</sup>.

### الجيش الإسلامي يتحرك إلى تبوك:

ولما تجهز الجيش الإسلامي استعمل النبي ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. فلما سار رسول الله ﷺ، تحلف عبدالله بن أبي ومن كان معه، وتحلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، فهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومروان ابن الربيع، وأبو خيثمة السالمي، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خيثمة، وأبو ذر، وشاهدها رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفاً من الناس، والخييل عشرة آلاف فرس <sup>(٣)</sup>.

### شأن أبي خيثمة:

روى الطبراني وابن إسحاق والواقدي أن أبا خيثمة رجع، بعد أن سار رسول الله ﷺ بعدة أيام إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين <sup>(٤)</sup> لهما في بستان له، قد رشقت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له ماء فيه، وهيات له فيه طعاماً، فلما

(١) مسك: أساور.

(٢) الرحيق المختوم ٣٧٠ - ٣٧١.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦١١.

(٤) عريش: خيمة.

دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأته ، وما صنعتا له ، فقال: رسول الله ﷺ في الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم؟! .

إما هذا والله بالنصف ، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما ؛ حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيأتا له زاداً ، ثم قدّم ناصحه فارتحلته وخرج في طلب رسول الله حتى أدركه حين نزل بتبوك ، ولما دنا أبو خيثمة من المسلمين قالوا: هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : «كن أبا خيثمة» ، فقالوا: يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة ، فلما أتاح أقبل إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : «أولى لك يا أبا خيثمة» (١) . . ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فدعا له ﷺ بخير (٢) .

### شَأْنُ أَبِي ذَرِّ الْفِقَارِيِّ :

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ سائراً ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول: «دعوه؛ فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» ، حتى قيل: يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال: «دعوه؛ فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه» .

وتلوم (٣) أبو ذر على بعيره ، فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازلهم ، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : «كن أبا ذر» ، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله ، والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : «رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده» .

ومضى الزمان وجاء عصر عثمان ، ثم حدثت بعض الأمور ، وسير أبو ذر إلى الزبد ، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلّامه ، إذا مت فاغسلاني وكفّناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق ، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر ، فلما مات

(١) أولى لك: أجدر بك .

(٢) فقه السيرة للبطوني ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٣) تلوم على بعيره: تمهل .

فعلوا به كذلك ، فطلع ركب فما عملوا به ؛ حتى كادت ركائبهم تطأ سيره ، فإذا ابن مسعود فى رهط من أهل الكوفة ، فقال ما هذا؟ فقيل: جنازة أبى ذر ، فاستهل ابن مسعود بيكى ، فقال: صدق رسول الله ﷺ : «يرحم الله أبى ذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده ، فزل فوليه بنفسه حتى دفنه» (١) .

### شأن علي بن أبي طالب :

وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبى طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، فقالوا: ما خلفه إلا استثقلاً له ، وتخففاً منه ، فأخذ عليّ سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف (٢) ، فقال: يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخفت منى ، فقال: كذبوا ، ولكننى خافتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ غير أنه لا نبى بعدى ، فرجع عليّ إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره (٣) .

### النبي ﷺ والمسلمون بالحجر :

ومر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، أى وادى القرى - فاستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : «لا تشربوا من مائهم ، ولا تتوضأ منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح عليه السلام» وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبى ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى» .

واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء ؛ حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت ؛ حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء ، ولما قرب من تبوك قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها؛ حتى يضحى النهار ، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً؛ حتى آتى» قال معاذ: فجئنا وقد سبق إليها

(١) السيرة النبوية للصلايى (٢ / ٥٣٧ - ٥٣٨) .

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٠٦ .

(٣) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة .

رجلان ، والعين تَبْضُ بشيء من مائها ، فسألها رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئاً» قالوا: نعم ، وقال لهما: ما شاء الله أن يقول ثم غرف من العين حتى اجتمع الوَشَلُ<sup>(١)</sup> ؛ ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنائناً».

وفى الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات- قال رسول الله ﷺ: «قُب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقيم أحدكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله» فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملة الريح ؛ حتى ألقته بجبل طيء<sup>(٢)</sup> .  
**النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُهُمْ عَنْ مَكَانِ نَاقَتِهِ الَّتِي ضَاعَتْ:**

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه فى طلبها ، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، يُقال له: عمارة بن حزم وكان عقيماً بديراً وهو عم بنى عمرو بن حزم ، وكان فى رحله زيد بن اللصيت القينقاعى ، وكان منافقاً .

فقال زيد بن اللصيت ، وهو فى رحل عمارة ، وعماراة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: وعماراة عنده: «إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله، وقد دلتنى الله عليها، وهى فى هذا الوادى، فى شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها»، فذهبوا، فجاءوا بها، فخرج عماراة بن حزم إلى رحله ، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ أنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا للذى قال زيد بن اللصيت ، فقال رجل ممن كان فى رحل عماراة ، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى . فأقبل عماراة على زيد يجافى عنقه<sup>(٣)</sup> ويقول: إلهي عباد الله ، إن فى رحلى للدهية ، وما أشعر أخرج أى عدو الله من رحلى ، فلا تُصحبني<sup>(٤)</sup> .

(١) الوشل: الماء القليل يتحلب من الجبل .

(٢) الرحيق المختوم ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٣) يجافى عنقه: يطعنه فيه .

(٤) ابن هشام ٢ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

## وَقَاةُ الصَّحَابِيِّ ذِي الْبِجَادَيْنِ:

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، قال: فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر ، قال: فاتبعتها ، أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنئى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ فى حضرته ، وأبو بكر وعمر يدلانيه إليه ، وهو يقول: «أدنيا إلي أحكما» فدلياه إليه ، فلما هياه بشقه قال: «اللهم إني أمست راضيا عنه، فارض عنه» قال (الراوى عن ابن مسعود) قال عبد الله بن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة .

قال ابن هشام: وإنما سمي ذو البجادين ، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه ، حتى تركوه فى بجاد ، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريبا منه ، شق بجاده باثنين ، فاتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين ؛ لذلك <sup>(١)</sup> .

## الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ بِتَبُوكَ:

نزل الجيش الإسلامى بتبوك فعسكر هناك ، وهو مستعد للقاء العدو ، وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء ، بل تفرقوا فى البلاد فى داخل حدودهم فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية ، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدم بين الجيشين .

وجاء إلى النبى ﷺ صاحب أيلة ، فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء ، وأذرح ، فأعطوه الجزية ، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا ، فهو عندهم ، وكتب لصاحبه أيلة: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمانة من الله ، ومحمد النبى رسول الله لِيُحْتَنَ بن رُوْبَةِ ، وأهل أيلة، سفتهم، وسيارتهم فى البر والبحر، وهم ذمة الله ، ومحمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه لمن أخذه من

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٤٣ - ٥٤٤) .

الناس، وإنه لا يحل أن ينعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يردونه من بحر أو بر» (١).

### النَّبِيُّ ﷺ يُرْسِلُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَكِيدِرِ دَوْمَةَ:

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل في أربعمئة وعشرين فارساً، وقال له: «إنك ستجده يصيد البقر»، فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيد ليصيدها - وكانت ليلة مقمرة - فتلقاها خالد في خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفى بغير وثمانمئة رأس وأربعمئة درع وأربعمئة رمح وأقر بإعطاء الجزية فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء (٢).

### الرُّجُوعُ إِلَى الْمَدِينَةِ:

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك منتصراً، لم ينل كيداً، وكفى الله المؤمنين القتال، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود زمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادي، فانتهزوا أولئك النافقون هذه الفرصة، بينما رسول الله ﷺ وصاحبه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتثمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار؛ حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم وبما هموا به، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ تَرْتَالُوْنَ وَمَا نَفَعُوا إِلَّا أَنْ أُغْنَاهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا ۗ هُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعِدُّهُمْ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤] ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل مجننا ونحبه»، وقال لأصحابه: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبسهم العذر» وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن:

ممن ثنيات الوداع

طلوع البدر علينا

مما دعا الله داع

وجسب الشكر علينا

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦١٨ .

(٢) الرحيق المختوم ٣٧٢ - ٣٧٣ .

وكانت عودته ﷺ من تبوك ، ودخوله في المدينة في رجب سنة ٩ هـ ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يوماً ، أقام منها عشرين يوماً في تبوك ، والبواقي قضاهما في الطريق جيئةً وذهوياً ، وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ <sup>(١)</sup> .

أمر المخلفين: وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها- اختباراً شديداً من الله ، امتاز به المؤمنون من غيرهم ، كما هي سنته تعالى في مثل هذه المواطن ، حيث يقول: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمناً صادقاً ، حتى صار التخلف أمانة على نفاق الرجل ، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر ، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين ، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذباً ، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأساً: نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين ؛ تخلفوا من غير مبرر ، وهم الذين أبلاهم الله ، ثم تاب عليهم .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد ، فصلى فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلاً- فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعدار ، وطفقوا يخلفون له ، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله .

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين - وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية - فاختاروا الصدق ، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة ألا يكلموا هؤلاء الثلاثة <sup>(٢)</sup> إلى أن نزلت آيات بقبول توبتهم .

وقد روى كعب بن مالك رضى الله عنه خبره في ذلك - في حديث طويل رواه البخارى ومسلم - وجاء فيه قوله: كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، وطفقت أعبدو ؛ لكى أتجهز مع المسلمين ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه ، أى: لن يعينى شيء عن سرعة التجهز) فلم يزل يتمادى بى ؛ حتى اشتد بالناس الجُدُّ ولم أقض من جهازى شيئاً . ولم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو <sup>(٣)</sup> وهممت أن أرتحل فأدرکهم ، وليتنى فعلت ، فلم يقدر لى

(١) الرحيق المختوم ص ٣٧٣ ، فقه السيرة للبوطي ص ٣١١ .

(٢) الرحيق المختوم ٣٧٣ - ٣٧٤ .

(٣) تفارط: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا .

ذلك ، فكننت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطقت فيهم ، أحزنتنى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموساً بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء . . ولما بلغنى أنه توجه قافلاً حضرنى همى ، فطقت أتذكر الكذب ، وأقول: بماذا سأخرج من سخطه غداً؟! واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، ولما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أقبل ، زاح عنى الباطل ، وأجمعت أن أصدقه ، فجيئته ، فلما سلمت عليه تسم تسم المغضب ، ثم قال: «تعال» فجئت أمشى ؛ حتى جلست بين يديه ، فقال لى: «ما خلقتك؟ ألم تكن قد ابعت ظهرك؟» فقلت: بلى ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إنى لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك» فقممت ، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى يؤنبونى<sup>(١)</sup> ، فقلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا: نعم ، رجلان ، قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فذكروا لى رجلين صالحين شهدا بدرأ لى فيها أسوة ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ، أى: ثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتبتنا الناس وتغيروا لنا ؛ حتى تنكرت لى الأرض ، فما هى بالتى أعرفها فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبائى فاستكانا وقعدوا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكننت أشب القوم وأجلدهم ، فكننت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وأتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى: هل حرّك شفّته برد السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه أسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل لى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، ويقول: من يدلنى على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشترى له حتى إذا جاءنى دفع إلى كتاباً من مالك غسان ، فإذا فيه: ( أما بعد ؛ فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله فى دار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك ) فقلت لما قرأتها:

(١) يؤنبونى: يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين .

وهذا أيضاً من البلاء، فتممت<sup>(١)</sup>، بها التنورة فسجرت<sup>(٢)</sup>، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر... فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ؛ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع<sup>(٣)</sup>، بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أأبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء فرج، وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، نزعته له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتئونى بالتوبة، ودخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول؛ حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك عند الله» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» فقلت: يا رسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك»، فقلت: يا رسول الله إنما نجاني الصدق، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿لَقَدْ تَابَكَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا

(١) تممت: قصدت.

(٢) سجرت: أحرقت.

(٣) أوفى جبل سلع: صعدته وارتفع عليه، وسلع جبل بالمدينة.

حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩] (١)

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيَجْلِهِنَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا أَحْجَدًا مَا أَحْمَلَكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢] (٢).

**مَسْجِدُ ضُرَّارٍ:**

شرح جماعة من المنافقين في بناء وكرة للدس والتأمر في صورة مسجد، وهو مسجد الضرار، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم؛ فيصلى في مسجدهم ليجتجوا بصلاته فيه علي تقريره، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل ﷺ راجعاً من تبوك نزل عليه جبريل بنجر مسجد ضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَّارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢٠﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُتِمِسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُمْ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مَحْبُوبًا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨] فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من يهدمه قبل مقدمه المدينة (٣).

### أثر هذه الغزوة:

لقد كان لهذه الغزوة أثر عظيم في سكان شبه الجزيرة العربية؛ لا يقل روعة وجلالاً عن أثر فتح مكة، ولئن كان فتح مكة قد نبه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عقولهم، وهى إدراك الحق الذى بُعث به محمد ﷺ فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم؛ لأن يسرعوا بالدخول فى هذا الحق الذى دعاهم إليه .

(١) فقه السيرة للبيوطي ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٥١) .

(٣) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٥٥ - ٥٥٦) .

إن خروج المسلمين بجيش ضخم بلغ تعداد جنوده ثلاثين ألفاً، فيهم عشرة آلاف فارس أمر لم تعرفه العرب من قبل في بلادها، أما وقد استطاع المسلمون تجميع هذا الجيش فهم ولا شك قادرون على أن يفعلوا ما عجز عنه غيرهم، وتحريك هذا الجيش من المدينة إلى تبوك وهي مسافة هائلة تبلغ قرابة ستمائة ميل، وفي وقت عسرة وجذب وفي ذلك النظام وتلك الدقة دليل على عظمة القيادة وجزمها وخبرتها العسكرية الواسعة بشئون الحرب، وعلى حسن تدريب الجنود وعظيم طاعتهم.

ولقد كان فرار الروم وهم البادنون - وهم في بلادهم ولجوؤهم إلى التحصن داخل البلاد؛ حتى لا يدركهم المسلمون أعظم دليل على قوة المسلمين التي لا يستطيع أحد الوقوف أمامها، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس وأخرجوهم من جنوب الجزيرة واستردوا منهم الصليب المقدس، وأعادوه إلى القدس في احتفال رائع. . هؤلاء هم الذين فروا وانسحبوا من الميدان عندما واجهوا المسلمين، أفلا يكون ذلك دليلاً على قوة المسلمين وقدرتهم على مواجهة أى عدو يهددهم. هذه الأمور مجتمعة حركت نفوس سكان شبه الجزيرة نحو الإسلام<sup>(١)</sup>.

كما لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين، وقد أمر الله بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم والاستغفار لهم والقيام على قبورهم، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التي بنوها باسم المسجد، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحاً تاماً<sup>(٢)</sup>.

**العبرُ والعِظَاتُ:**

تنطوي غزوة تبوك على العديد من الدروس والعبر والعظات نذكر منها ما يأتي:

١- أهمية الجهاد بالمال، فالجهاد ضد الأعداء ليس محصوراً بالخروج للغزو فقط، وقد استطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنوا أن ما لهم في خدمة هذا الدين يدفعونه عن طواعية ورغبة، وإن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرف؛ لأنه تاريخ المال في يد الرجال، لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنفس، فكذلك هو بالمال، وإن الذين

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٧٤.

ربوا على أن يقدموا أنفسهم ، تهون عليهم أمواهم في سبيل الله تعالى<sup>(١)</sup> .

٢- إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين ، كان غرض الرسول ﷺ منه إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية ، فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ ، فلا بد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، وقد ساعد هذا التدريب العملى الصحابة فى عصر الخلفاء ، فقاموا بفتح بلاد الشام وبلاد الفرس بقوة إيمانهم وثقتهم بمخالقهم وساعدهم على ذلك لياقتهم البدنية العالية ، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح وأنواع الأسلحة فى زمانهم<sup>(٢)</sup> .

٣- قام رسول الله ﷺ بتطبيق مبدأ الشورى فى هذه الغزوة فى بعض النوازل منها:

١- قَبُولُ مَشُورَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي تَرْكِ نَحْرِ الْإِيلِ حِينَ أَصَابَتِ الْجَيْشَ مَجَاعَةً:

أصاب جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك ، فاستأذنوا النبى ﷺ فى نحر إيلهم حتى يسدوا جوعتهم ، فلما أذن لهم النبى ﷺ فى ذلك جاءه عمر رضى الله عنه فأبدى مشورته فى هذه المسألة ، وهى أن الجند إن فعلوا ذلك نفذت رواحلهم ، وهم أحوج ما يكونون إليها فى هذا الطريق الطويل ، ثم ذكر رضى الله عنه حلاً لهذه المشكلة المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها ، فعمل ﷺ بهذه المشورة ؛ حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام ، بعج أن ملؤوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا .

٢- قَبُولُ مَشُورَةِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَرْكِ اجْتِيَازِ حُدُودِ الشَّامِ وَالْعُودَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ:

عندما وصل النبى ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فرّوا خوفاً من جيش المسلمين ، فاستشار أصحابه فى اجتياز حدود الشام فأشار عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة ، وعلل رأيه بقوله: إن للروم جمعاً كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، ولقد كانت مشورة مباركة ؛ فإن القتال داخل بلاد الروم يعد أمراً صعباً ، إذا أنه يتطلب تكتيكاً خاصاً ؛ لأن الحرب فى الصحراء تختلف فى طبيعتها عن الحرب فى المدن ، بالإضافة إلى أن عدد الرومان فى الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفاً ، ولا شك فى أن تجمع هذا العدد الكبير فى تحصنه داخل المدن يعرض جيش

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٢٨) .

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٣) .

المسلمين للخطر .

إن تطبيق الشورى فى حياة الأمة فى كافة شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية . . . إلخ ، منهج تربوى كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ فى حياته<sup>(١)</sup> .

### الْمَنَافِقُونَ وَمَدَى خُطُورَتِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ:

نال أمر هذه الغزوة من حديث كتاب الله عنها وتعليقه عليها ما لم تنله أى غزوة أخرى ، وإنك لتقرأ عنها سورة التوبة آيات بل صفحات كثيرة ، وتركز معظم هذه الآيات على بيان أهمية الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، وإنه الدليل الوحيد على صدق إسلام المسلم ، وأنه فارق بين المؤمنين والمنافقين ، وأنه على المسلمين - إذا كانوا مسلمين- أن لا يركنوا إلى الدعة والراحة ، وأن يستهينوا بما قد يتعرضون له من عذاب وشدة فى سبيل الله تعالى ، كما أطالت فى الحديث عن المنافقين وفضح نواياهم والخفى من مقاصدهم .

والدرس الذى فى ذلك هو بيان خطورة أمر النفاق والمنافقين على المسلمين فى كل عصر ، وإيضاح أن الإسلام دعوى لا بد أن يصدقها الجهاد والتعرض للمحن ؛ حتى يتميز الصادق عن الكاذب ، ويمحص إيمان المؤمنين عن دجل المنافقين .

ولقد كانت تبوك أعظم مادة لهذا الدرس القرآنى ، إذ كان اختبار المسلمين بها أعظم اختبار إلهى ، كشف اللثام عن النفاق فى المدينة وميز المنافقين عن المسلمين الصادقين أعظم تمييز ، ثم نزلت الآيات المتوالية فى كتاب الله تعالى تضبطهم بجرائمهم وتعلن للمسلمين سر ائرمهم وتحذرهم منهم فى كل زمان ومكان .

ومكمن الخطورة فيهم ، أنهم إنما يحاربون الإسلام باسمه ، ويكيدون له بسلاحه ، يتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح والمرونة والتمسك بروح التشريع ويستخرجون منه الفتاوى الملققة المصطنعة ؛ تحقيقاً لأمانتهم أو تقريباً وأولياء نعمتهم .

والعظة التى ينبغى أن يأخذها المسلمون من هذا الدرس ، هو أن يحذروا عدوهم الخارجى مرة على أن يحذروا المنافقين فيهم ألف مرة ، وأن يحاربوا أو ما يحاربون ، ما قد

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٧٢ - ٥٧٣) .

يشيع بينهم من النفاق<sup>(١)</sup> .

### المُعْجَزَاتُ فِي هَذِهِ الغُرُوةِ:

- ١- الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه ﷺ بالسقيا .
- ٢- خبر ناقة رسول الله ﷺ التي ضلت وأخباره ﷺ عن مكانها .
- ٣- الأخبار بهبوب ريح شديدة ، وتحذير النبي ﷺ منها .
- ٤- تكثير ماء عين تبوك ، والإخبار بما ستكون من خصب .
- ٥- تكثير الطعام لدعاء النبي ﷺ<sup>(٢)</sup> .
- ٦- إخبار الرسول ﷺ خالد بن الوليد عندما أرسله إلى أكيدر دومة الجندل قائلاً: إنك ستجده يصيد البقر ، فوجده على هذه الحالة<sup>(٣)</sup> .
- ٧- وفى قوله ﷺ : «رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده»، ويبعث وحده ، ووقوع هذه الأحداث بعد إخباره ﷺ عنها معجزة أخرى من معجزات النبوة<sup>(٤)</sup> .

\*\*\*

(١) فقه السيرة للبوطي ٣١٧ - ٣١٨ باختصار .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٤٥ - ٥٤٨) .

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٧٢ .

(٤) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٣٨) .

## أَهْمُ الْأَحْدَاثِ مَا بَيْنَ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَحِجَّةِ الْوُدَاعِ

أَوَّلًا: وَقَدْ ثَقِيفَ وَإِسْلَامَهُمْ:

لما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي؛ حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام فرموه بالنبل، فأصابه سهم فقتله ثم إنهم رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه ستة منهم في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تسع<sup>(١)</sup>.

فقدم وفداهم، وفيهم: كنانة بن عبد الليل، وهو رأسهم يومئذ، وفيهم عثمان بن أبي العاص، وهو أصغر الوفد<sup>(٢)</sup>.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد؛ لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام؛ حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه الزنا وشرب الخمر وأكل الربا ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئاً من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا مخلصاً عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشتروطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبداً، فقبل ذلك، وكتب لهم كتاباً، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي؛ لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم الدين والقرآن، وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص إلى في رحالهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ، واستقرأه القرآن وسأله عن الدين، وإذا وجدوه نائماً عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة، فإن ثقيفاً لما عازمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف، كنتم آخر الناس إسلاماً؛ فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا عن الردة وثبتوا على الإسلام).

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٧).

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٣٩.

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة ، وخوفهم بالحرب والقتال وأظهر الحزن والكآبة ، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها ، وإلا يقاتلهم ، فأخذت ثقيفاً نخوة الجاهلية ، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب ، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل ، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر ، وأظهروا ما صالحوا عليه ، فأسلمت ثقيف .

وبعث رسول الله ﷺ رجالاً لهدم اللات ، أمر عليهم خالد بن الوليد ، فقام المغيرة ابن شعبة ، فأخذ الكُرزين<sup>(١)</sup> وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف ، فضرب بالكُرزين<sup>(٢)</sup> ، ثم سقط يركض ؛ فارتج أهل الطائف بضجة واحدة ، وقالوا: أبعث الله المغيرة ، قتلته الربة ، وفرحوا حين رأوه ساقطاً ، وقالوا: من شاء منكم ، فليقرب وليجتهد على هدمها ، فوالله لا تُستطاع فوثب المغيرة بن شعب ، فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف ؛ إنما هي لكاع<sup>(٣)</sup> حجارة ومدَر ، فاقبلوا عافية الله وابدوه ثم ضرب الباب فكسره ، ثم علا سورها ، وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً ؛ حتى سوّوها بالأرض ، وجعل صاحب المفتاح يقول: ليغضين الأساس ، فليخسفن بهم ، فلما سمع ذلك المغيرة ، قال لخالد: دعني أحفر أساسها ، فحفره حتى أخرجوا ترابها ، وانتزعوا حليها ولباسها ، فُبُهتت ثقيف .

وأقبل الوفد حتى دخلوا على رسول الله ﷺ بُحليها وكسوتها ، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه ، وحمد الله على نصرته نبيه وإعزاز دينه<sup>(٤)</sup> .

### ثَانِيًا: وَفَاةَ زَعِيمِ الْمَنَافِقِينَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ :

مرض عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، في ليال بقين من شوال ، ومات في ذي القعدة من السنة التاسعة .

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه نعوده ، فقال له النبي ﷺ : « قد كنت أمّاك عن حب اليهود » ، فقال عبد الله: فقد أبغضهم سعد بن

(١) الرحيق المختوم ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٢) الكُرزين: الفأس لها حد .

(٣) لكاع: العيد ثم استعمل في الحمق والدم .

(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٦٤٠ - ٦٤١ . .

زرارة فمات .

ولما توفى عبد الله بن أبي جاهه ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، تصلى عليه؟ وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، فقال رسول الله ﷺ : «إِنَّمَا أَخْبَرَنِي اللَّهُ» فقال: ﴿أَسْتَغْفِرُكُمْ أَوْ لَا سَتَغْفِرُكُمْ إِن تَسْتَغْفِرُكُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٨٠) وسأزيده على سبعين ، قال: إنه منافق ، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِيهِ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَكَيْفُوتٌ﴾ (التوبة: ٨٤) (١) .

**ثالثاً: حجّ أبي بكرٍ رضی الله عنه بالناس:**

**تأمير أبي بكرٍ على الحجّ:**

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان ، وشوالاً وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجّتهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجّتهم ، فخرج أبو بكر رضی الله عنه ومن معه من المسلمين .  
**نزول براءة واختصاص الرسول ﷺ عليّاً بتأدية براءة عنه:**

ونزلت براءة في نقض العهد ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ، وقال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (التوبة: ١) .

ولما نزلت على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر الصديق ؛ ليقيم للناس الحج ، قيل له: يا رسول الله ، وبعثت بها إلى أبي بكر ، فقال: «لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا عليّ بن أبي طالب رضی الله عنه فقال له: «أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته» .

فخرج عليّ على ناقة رسول الله ﷺ العضاء ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس بالحج ،

والعرب إذا ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج ، التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام على ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ؛ ليرجع كل قوم إلى مآمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قديما على رسول الله ﷺ .

**رَابِعًا : عَامُ الْوُفُودِ ٩ هـ :**

قال ابن إسحاق: لما فتتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه<sup>(١)</sup> .

والوفود التى سردها أهل المغزى يزيد عددها على سبعين وفدًا ، ولا يمكن لنا استقصاءها وليس كبير فائدة فى بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالاً ما له روعة وأهمية فى التاريخ ، وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل ، وإن كانت بعد الفتح ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضًا:

**وَفَدُ عَبْدِ الْقَيْسِ :**

كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك .

كان رجل منهم يقال له مُنْقَدُ بْنُ حِيَانَ يَرِدُ الْمَدِينَةَ بِالتَّجَارَةِ ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ وعلم الإسلام أسلم ، وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا ، فتوافدوا إليه فى شهر حرام فى ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كبيرهم الأشبح العصرى الذى قال فيه رسول الله ﷺ : «إن فيك خصلتين يجبهما الله: الحلم والأناة» .

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود ، وكان عددهم أربعين رجلاً ، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدى ، وكان نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه .

**وَفَدُ دَوْسَ :**

كانت وفادة دوس فى أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخيبر ، فلما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسى ، رجع إلي قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، ويبظنون عليه حتى

(١) ابن هشام (٢ / ٢٢٩ - ٢٣٠) .

يئس منهم ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال : « اللهم اهد دوساً ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفل بسبعين أو ثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخير فلحق به .

وَفَدُّ صُدَّاءَ :

جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨ هـ ، وذلك أن رسول الله ﷺ هياً بعثاً من أربعمئة من المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صُدَّاءُ ، وبما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن حارثة من الصدائي ؛ فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : جئتك وافداً على من ورائي ، فاردد الجيش وأنا لك بقومي ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائي إلى قومه فرغبهم في القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم ، وبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعواهم ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع .

وَفَدُّ عُدْرَةَ :

قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩ هـ ، وهم اثنا عشر رجلاً منهم حمزة بن النعمان ، قال متكلمهم : حين سئلوا : (من القوم؟) : نحن بنو عذرة ، إخوة قُصَيٍّ لأمه ، نحن الذين عضدوا قصباً ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب بهم النبي ﷺ ، وبشرهم بفتح الشام ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها ، أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا .

وَفَدُّ بَلِيٍّ :

قدم في ربيع الأول سنة ٩ هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثاً ، وقد سأل رئيسهم أبو الضيِّب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقر فهو صدقة» ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال : «ثلاثة أيام» ، وسأل عن ضالة الغنم ، فقال : «هي لك أو لأخيك أو لذنبي» ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال : «مالك وله ؟ ، دعه حتى يجده صاحبه» <sup>(١)</sup> .

(١) الرحيق المختوم ٣٨٠ - ٣٨٣ .

وَفَدُّ نَجْرَانَ:

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ، وقوام الوفود ستون رجلاً؛ منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران، أحدهم: العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح، والثاني السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل، والثالث: الأسقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية واسمه أبو حارثة بن علقمة<sup>(١)</sup>.

فقدموا على النبي ﷺ فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحيرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلون في المسجد نحو الشرق، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» ثم أتوا النبي ﷺ فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زبكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا ثم غدوا عليه بزى الرهبان فسلموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبي ﷺ: «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن الله ولذا» وكثر الجدل والحجاج بينه وبينهم، والنبي يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة، وكان مما قالوه: ما لك تشتم صاحبنا وتقول: «إنه عبد الله؟»، فقال: «أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مریم العذراء البتول» فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؛ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الرد عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢١) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٢٢﴾ (آل عمران: ٥٩ - ٦٠)، فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه، فلما لم تُجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة، امثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٢١) (آل عمران: ٦١).

وخرج النبي ﷺ ومعه علي والحسن والحسين، وفاطمة: «وقال: وإذا أنا دعوت فامتنوا» فامتنوا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقاً، وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفى حلة،

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٥٢.

ألف في رجب وألف في صفر، ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا للنبي ﷺ: ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منهم مال الصلح، فقال لهم: «لأبعثنُ معكم رجلاً أميناً حق أمين» فاستشرق له أصحاب رسول الله ﷺ: فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام قال: «هذا أمين هذه الأمة»<sup>(١)</sup>.

وَفَدُ ضَمَامَةَ بْنِ ثَعْلَبَةَ:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه: بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم علقه، ثم قال لهم: أيكم محمد؟! والنبي ﷺ متكئ بين ظهرايينهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب، فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتك»، فقال الرجل للنبي ﷺ: إني أسألك فمشدد عليك في المسألة؛ فلا تجد عليّ في نفسك<sup>(٢)</sup>. . فقال: «سل عما بدا لك» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللهم نعم» قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللهم نعم»، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللهم نعم»، قال: أنشدك بالله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللهم نعم» فقال الرجل آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضممام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.

وفى رواية عباس: . . . حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد رلاً أنقص .

قال: ثم أنصرف راجعاً، فقال رسول الله ﷺ حين ولى: «إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة»<sup>(٣)</sup>، قال: فأتى إلى بعيره، فانطلق عقاله ثم خرج؛ حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال: (بئست اللات والعزى، قالوا: صه يا ضممام اتق البرص والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا يتفغان، إن الله عز وجل بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ما كنتم فيه؛ وإني أشهد أن

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٤ - ٥٩٥).

(٢) تجدد: تحمق وتحمل البغضاء.

(٣) العقيصتين: لأنه فرق شعره فرقتين.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وإنى قد جئتكم من بعده ، بما أمركم به ، ونهاكم عنه ، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضرة رجل ولا امرأة إلا مسلماً ، قال: يقول ابن عباس رضى الله عنهما: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة<sup>(١)</sup> .

وَقَدْ بَنَى حَنِيفَةً:

كانت وفادتهم سنة ٩ هـ ، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مُسَيْلِمَةُ الكَذَابِ ، وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة ، نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار ، ثم جاءوا إلى النبي ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب ، ويظهر بعد النظر في جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ ، وأن النبي ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً ؛ فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعا تفرس فيه الشر .

وكان النبي ﷺ قد رأى قبل ذلك في المنام أنه أتى بجزائن الأرض ، فوقع في يده سواران من ذهب ، فكبرا عليه وأهماه ، فأوحى إليه أن انفخهما فذهبا ، فأولهما كذايين يخرجان من بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف ، وقد كان يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعه ، جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد ، ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شماس ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه ، فكلمه ، فقال له مسيلمة: إن شئت خيلنا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكما ، ولن تعدوا أمر الله فيك ، ولن أدبرت ليعقرنك الله ، والله إنى لأراك الذى أريتُ فيه ما رأيتُ وهذا ثابت يبيحك عنى» ثم انصرف .

وأخيراً وقع ما تُفَرِّسُ فيه النبي ﷺ ؛ فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقى يفكر فى أمره ؛ حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبي ﷺ ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع السجعات ، أحل لقومه الخمر والزنا ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي ، وافتنن به قومه فتبعوه وأصغقوها معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له: رحمان اليمامة ؛

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٩٣ - ٥٩٤) .

لعظم قدره فيهم ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه : ﴿إِنَّكَ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] . وعن ابن مسعود: جاء ابن النُّوَّاحَةِ ، وابن أُنَّالَ رسولاً مسيلمة إلى النبي ﷺ ، فقال لهما : «أتشهد أني رسول الله؟» فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله ، فقال النبي ﷺ : «آمنت بالله ورسوله ، لو كنت رسولاً لقتلتكما» .

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢ هـ ، قتله وحشى قاتل حمزة ، وأما المنتبئ الثاني ، وهو الأسود العنسي الذي كان باليمن ، فأتاه الوحي فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه .

### خَامِسًا : بُعُوثُ الرَّسُولِ لِتَعْلِيمِ مَبَادِيئِ الْإِسْلَامِ وَتَرْتِيبِ أُمُورِ الْإِدَارَةِ وَالْمَالِ :

كانت الوفود تسعى إلى المدينة ؛ لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية ، ويتعلموا ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم ، وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم ، وشرع ﷺ يبعث دعواته في شتى الجهات ، واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن ؛ لتعليمها مبادئ الإسلام وأحكامه .

### بَعَثَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ :

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى ، سنة عشر ، إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيها الناس ، أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ، ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، كما أمره رسول الله ﷺ (١) .

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ ، يعلمه بإسلامهم وأنه مقيم فيهم ؛ حتى يكتب إليه رسول الله ﷺ ، فجاءه كتاب رسول الله ﷺ يأمره بأن يقبل إلى المدينة ومعه وفد منهم ففعل ، فلما قدموا أمر عليهم قيس بن الحصين ، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو ابن حزم ليفقههم في الدين ، ويعلمهم السنة ، ومعالم الإسلام .

(١) ابن هشام ٢ / ٢٥٣ .

وفى رواية أنه ﷺ أرسل علياً من خالد ، وعندما وصل إلى قبائل همدان قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ؛ فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان»<sup>(١)</sup>.

### بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ إِلَى الْيَمَنِ:

بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري - أعلم الصحابة بالحلال والحرام - إلى اليمن قاضياً ومفتقهاً وأميراً ومصديقاً ، وجعله على أحد مغلخافها<sup>(٢)</sup> ، وهو الأعلى ، ولما خرج معاذ قاصداً اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يودعه ويوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته ، فأوصاه قائلاً له: «إنك ستأتى قوماً من أهل الكتاب، فإذا جنتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة؛ تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»<sup>(٣)</sup> ، وبعث أبا موسى الأشعري على الكورة السفلى ، وقال لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا» وقد مكث معاذ باليمن ؛ حتى توفي رسول الله ﷺ أما أبو موسى الأشعري فقدم عليه ﷺ في حجة الوداع<sup>(٤)</sup>.

### تَرْتِيبُ أُمُورِ الْإِدَارَةِ وَالْمَالِ:

إن النظام سمة يتميز بها الإسلام منذ اللحظة الأولى حيث يدخل في جميع جوانب الإسلام التصورية والشعائرية والتعبدية وفي الشرائع الحياتية كلها ، فكان ﷺ يضع من يدير المدينة فى حالة غيبته عنها ، وكلما فتح منطقة وضع عليها أميراً ، وكانت الوفود تأتى إليه ﷺ فيعين عليها أميراً من قبله ، ثم يترك لهم من يعلمهم دينهم ويرسل إليهم من يجمع صدقاتهم ، وكان يختار عماله من الصالحين وأولى العلم والدين ، ومن المنظور

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٦).

(٢) المخلاف: الإقليم.

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٧).

(٤) الرحيق المختوم ص ٣٨٤.

إليهم من العرب وذوى الشخصيات المؤثرة فى قبائلهم .

وكان ﷺ يستوفى الحساب على العمال ، يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وحدد لبعض عماله رواتب وللبعض الآخر قطعة أرض يأخذ خراجها ، وكانت رواتب عماله تتغير بتغير أحوال المعيشة فهى ليست ثابتة ، قال ﷺ : «من ولى لنا ولاية، ولم يكن له بيت فليتخذ بيتاً ولم تكن له زوجة فليتخذ زوجة، أو لم تكن له دابة فليتخذ دابة» وهذه هى الحاجات الرئيسية لولى الأمر فى ذلك الوقت منعاً لأخذ الرشوة ، وهذه قاعدة قانونية جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة فى بنودها ، وهى أن الهدية للحاكم رشوة صريحة <sup>(١)</sup> .

وهكذا نرى فى تتابع الوفود مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التابع وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال ؛ حتى لم تكن ترى محيصاً عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لساداتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد عما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب .

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله فى سورة التوبة: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُودِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٨] .

وأثنى على آخرين منهم فقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا غَيْرَ مَبْرُورٍ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة: ٩٩] .

أما الحاضرون منهم فى مكة والمدينة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الإسلام فيهم قوياً ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين <sup>(٢)</sup> .

\*\*\*

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٥٩٨ - ٥٩٩) .

(٢) الرحيق المختوم ٣٨٨ .